من نجيب محفوظ إلى أبناء "العالم الآخر"

درس في المقاومة !

بقلم إياد احمد ملحم

متى نتخلص من مفاهيمنا السلبية العتيقة التي كانت سبب النكبة والبلاء !

متى نستبدل تقاليدنا البالية بقيم ايجابية واقعية جديدة ؟

وحتى متى نظل حياتنا حياة خنوع واستسلام وعجز ؟!

لعل هذا هو ما يريد نجيب محفوظ من كل منا ان يسأله لنفسه في هذه الايام من خلال قصته القصيرة التي نشرها مؤخرا في عدد مايو من مجلة الهلال بعنوان : « العالم الآخر » . والقصة باختصار تتحدث عن طالب يدخل دربا ضيقا في حي شعبي ليدعو صاحبة القهوة فيه ونابعها الى الاضراب احتجاجا على الغاء الدستور . وهناك يشهد موت احدى الراقصات بالسكتة القلبية ، كما يشهد صراعا ينتهي بموت البابع والفتوة الكبير الذي اعتدى على حرمة القهوة . وخلال الفترة التي قضاها الطالب في عالم أهل الدرب نراه يشترك في حوار يكشف عن زيف كثير من المفاهيم المعتمدة في مجتمعنا العربي . ثم نراه يمر بتجربة حية تعلمه ـ ونعلمنا ايضا الكثير من الدروس عن جدوى العمل، والقيام بالواجب ، وعن ضرورة التصميم على المقاومة ، والموت اذا اقتضى الامر دفاعا عن النفس والملك والكرامة .

اما « العالم الآخر » فهو عالم الملايين العربية البورجوازية اللامبالية وغير ملتزمة في مصر ، وربما في بيروت ودمشق وبغداد ايضا . انه العالم الذي ما زال يعيش حتى يومنا هذا بمفاهيم وقيم وتقاليد فترة الاحتلال الاجنبي قبل حوالي خمسين سنة ، وكأن شيئا لم يتغير منذ ذلك الوقت . ذلك ان احداث القصة تدور في فترة زمنية تعود الى العشرينات ايام الاحتلال الانجليزي في مصر . ولعل مثل هذا التوقيت له علاقة بالاحتلال الجديد لبعض الاراضي المصرية والعربية ، كما ان فيه اشارة الى ان كثيرا من مفاهيمنا ما زالت كما كانت عليه منذ ايام الاحتلال لم تتغير ولم تتبدل .

واما العالم الحقيقي عند نجيب محفوظ فهو عالم اهل الدرب الشعبي الضيق الواقع في شارع كلوت بك بكل ما فيه من مساوىء وحسنات . انه عالم المعلمة ونابعها وما يمثلانه من صدق المبادىء والمشاعر ، ومن واقعية القيم والتقاليد ، ومن ايجابية المقاومة والكفاح.

ولكن ما هي مفاهيم أهل « العالم الآخر » وقيمهم وتقاليدهم اذا ما قورنت بمفاهيم ابناء الدرب وقيمهم وتقاليدهم ؟

لقد كان الكفاح في العالم الآخر ايام الاحتلال الاجنبي يتمثل باتخاذ القرارات الخطيرة والقاء الخطب النارية الرنانة وبتنظيم المظاهرات والاضرابات :

« نحن مندوبي اللجنة انتشرنا في انحاء القطر للدعوة الى قرار خطير ! » و « الجميع استجاب لنداء الوطنية ». و « سيغلقون الابواب جميعا بلا استثناء » . وحتى اليوم ما زال مفهوم الكفاح الوطني عند الملايين العربية سلبيا حيث يعيش الناس يومهم في لهو ولا مبالاة ، ينامون ويستيقظون على سماع الاخبار ، يتمنون ويدعون الله ، ويحلمون بتحقيق المعجزات ، بينما العدو من حولهم يعمل ويهدد ويتقدم . وعندما يشتد حماسهم وتستيقظ وطنيتهم يكتفون بالانفعالات العاطفية الآنية فيغضبون ويهددون وينظاهرون ، ويلعنون الظلام ، ثم يعودون فيلقون اللوم على من كان السبب ويعلنون عجزهم ويستجدون المساعدة وينتظرون الفرج .

لكن الكفاح في الدرب اتخذ شكلا آخر . الكفاح في عالم اهل الدرب يبدأ بالتخطيط والتصميم على التنفيذ : «كل شيء بأوانه ، والا دمرنا تدميرا لا يبقي ولا يذر » . و « ثق من انني سأضربه ذات يوم ». ثم هو كفاح ايجابي عنيد وصلب لا يعرف السلبية ولا الانفعال العاطفي : « لا وقت هنا للبكاء » . و « ان اي ضعف يعترينا هنا انما يعني هلاكنا ! » و « دستورنا .. يقضي بان نعمل لا ان نضرب ، ان نعمل لا ان نبكي موتانا » . وهو كفاح قائم على الاعتماد على النفس ، وعلى المقاومة التي لا تلين ولا تستسلم ولا تستجدي الحماية من احد مهما بلغت قو ةالخصم وفداحة التضحية : فالراقصة « خاضت معركة مجهولة وحدها بلا نصير وبلا استجداء .. » . وتابع المعلمة واجه مصيره بكل شجاعة وتحد وبسالة وعزة نفس . ولعل في الحوار التالي خير مثل تقدمه القصة على نوع الكفاح والصمود والمقاومة ، وعلى صدق المبادىء والقيم والتقاليد التي تنقصنا اليوم كما كانت تنقص اهل العالم الآخر .

يسأل الشاب صديقه التابع عما سيفعله عندما سيقتحم الفتوة البيت محطما من يعترضه فيجيبه التابع :

ـ لا استطيع ان ادعه يمر دون مقاومة !

ـ انفكر في اعتر ، سبيله ؟

ـ هذا هو عملي .

ـ عملك ؟

ـ أنا حامي منطقة المعلمة .

ـ ولكنه .. ولكنه سيقضي عليك .

ـ ربمـا !

ـ انه مؤكد ، فلا تخاطر بحياتك .

ـ هو عملي كما قلت لك .

ـ تجاهله ..

ـ أفقد عملي وكرامتي .

ـ يمكن ان تتسلل بطريقة ما الى الشرطة !

فقال ضاحكا :

ـ افقد كرامتي مرتين .

ـ لا أفهمك .

ـ هي تقاليد عملي .

ـ اخشى ان تذهب ضحية للغرور ، دعني اتسلل انا ..

ـ ارفض اقتراحك ..

ـ انت مهدد بفقد حياتك .

ـ محتمـل !

ـ قد تكون آخر ساعة في حياتك .

ـ قول يصدق على اي مخلوق !

ـ إن نكون معركة عادلة .

ـ لا نوجد معركه عادلة ! الخ ..

والحقيقة ان في هذا الحوار القصير تباينا واضحا في التفكير والمفاهيم بين عقلية ابن الدرب وموقفه الذي يعلمنا اكثر من درس في الكفاح والمقاومة والقيام بالواجب ، وفي الصمود والبسالة وعزة النفس والتضحية ، وبين عقلية الطالب ابن العالم الآخر وموقفه المليء بالتجاهل واللامبالاة ، وبالعجز والشكوى واستجداء الحماية ، وبعدم الادراك لمعاني الكرامة والتضحية والواجب. هذا بالاضافة الى ما نلحظه عند الاول من واقعية في التفكير وايجابية في العمل وتصميم على الدفاع ، وما نلحظه عند الثاني من روح الذل والمهانة والجبن المقترن بالغباء والتجاهل واختراع المبررات .

والعالم الآخر هو عالم الخيال والاماني والنظريات السلبية البحتة حيث يهرب الناس من ذلهم وعجزهم الى مزيد من الذل والاستجداء ، ومن ضعفهم واستسلامهم الى الاحتماء بعبارات مثل الصدق ، والسلام، والادب ، والانسانية . ففي العالم الآخر الذي قدم منه الشاب عضو لجنة الطلبة نرى « السماء تمطر ادبا » ، والكثيرين « يذكرون وينجحون ويشتركون في المظاهرات وليس لديهم فكرة عن اي شيء سوى الكتب والدستور » . وعندما تتجاهل المعلمة جثة الراقصة ولا تحترم الموت لانه كما تقول « لم يحدث شيء غير طبيعي ، وليس في قدرتنا أن نرد الارواح الى اجسادها .. » ولانه « لا جدوى من تصرف انساني يقضي علينا بالخراب العاجل . » في مثل هذا الموقف الواقعي نسمع ابن العالم الآخر يحتج على هذه المفاهيم الجديدة عليه ويصيح غاضبا : « ولكنه تصرف ابعد ما يكون عن الانسانية .. » وهو « وضع لا يقبله عقل .. » . وفي الوقت الذي كان يمتلىء فيه عالم الدرب بروح الكفاح والعمل كان الطالب القادم من العالم الآخر يكتفي بالتعبير عن مشاعره واحلامه وتمنياته : « اني حزين ، بودي ان افعل شيئا . » و « بودي ان اصعد الى حجرة الفتاة .. لاجس نبضها من جديد ! » .

وعندما كان ينفجر ابن الدرب في وجهه قائلا : « انـي اتوثب لمواجهة القضاء وانت تحلم بالخرافات » كان يرد عليه بكل بساطة وغباء وبرود : « سمعنا عن جثث دبت فيها الحياة بعد دفنها ! »

والحق ان الطالب الذي يمثل العالم الآخر كان يقف دائما مشدوها حائرا متعجبا لا يفهم ما يقال له بوضوح ولا يدرك شيئا عن قيم العالم الغريب الذي دخله ولا عن مفاهيمه وتقاليده الغريبة عنه . ولذلك نراه في اغلب الاوقات يردد عبارات التساؤل والاستفسار والتعجب :

ـ موقفك غير مفهوم يا هانم !

ـ عم تتحدثين ؟

ـ أفندم ؟

ـ لا افهمك .

ـ انه اعجب مكان رأيته في حياتي ..

ذلك ان الطالب اعتاد في العالم الآخر على تقاليد ومفاهيم معينة حيث يطبق الاضطهاد على الناس في بيوتهم ويطاردهم خارجها ويحولهم الى عبيد مضطهدين خاضعين لسلطة الطاغية يلتهم لحمهم ويهشم عظمهم . وحيث يدفن المجتهد في ادارة من ادارات الحكومة لا يرتقي الا بالواسطة او بسلطة الغير ورضاء الاسياد نتيجة للخضوع والنفاق والكذب . ولا شك في ان من اعتاد على مثل هذه المفاهيم والتقاليد في حياته يصعب عليه فهم تقاليد وقيم اهل الدرب حيث « تسعد النفس بجميع محرمات العالم الاخر ، مثل الحب والحرية والاحترام ! » وحيث « يتقرر مصيرك بقوة رأسك ، وينحدد مركزك المالي بجرأتك ، وتتقرر سعادتك بطاقة حيويتك ، فلا زيف على الاطلاق .. »

ولكن هل سيدرك ابناء العالم الآخر زيف القيم والتقاليد التي يعيشون في ظلها ؟ ومتى يتخلصون من ذل الخضوع والعجز، ومن عار الاستسلام الى عالم الخيال والاحلام والسلبية ؟ متى يؤمنون بالصدق في القول والعمل ، وبمفاهيم الصمود والمقاومة والتضحية والكفاح الايجابي دفاعا عن النفس والوجود والكرامة !

وهل سيتبنى عالمنا قيم اهل الدرب ومفاهيمهم مرة واحدة ام بالتدريج ؟ ومتى ؟ هذا ما سوف يجيب عنه المستقبل ، والمستقبل القريب كما يبدو للمتفائلين .

ولعل روح المقاومة والتضحية التي ابداها تابع المعلمة امام جبروت الفتوة وعصابته دفاعا عن نفسه وعمله وكرامته ، لعل هذه الروح لا تختلف كثيرا عما نشهده اليوم عند نفر ممن آمنوا بالمقاومة باوسع واسمى معانيها ، ولا عما يفكر به أحد ممثلي اهل المقاومة والفداء عندما يقول :

« لقد رفضنا (كامو) لان ايمانه بالعقل والحكمة اصبح امرا رومنطقيا نظريا . ليس امامنا اختيار آخر . فاما ان نتعرض كشعب وتتشتت في اربعة اطراف الارض . او ان نمتشق السلاح . ولهذا كان منظفنا مستمدا من برميل البارود » ومن فانون وغيفارا ، تماما كما كان منطق مساعد المعلمة ونابعها مستمدا من الخنجر والاعتماد على النفس ومن المقاومة الانتحارية والعمل الصامت البعيد عن النظريات الخيالية العالمة وعن الكفاح السلبي المستجدي العاجز .

الكويت

اياد احمد ملحم